غربة الشاعر الجاهلي في الزمان والمكان

للدكتـــور

مصطفى عبد الشافي الشورى

كلية الآداب - جامعة عين شمس

أحس الجاهلى ـ نظرا لظروفه البيئية ـ إحساسا شديدا بالغربة ، وبأن الحياة ـ وهى محدودة فانية ـ لا تستحق أن تعاش إذا ابتعد عن شرب الخمر وعن المرأة وعن متع الحياة الأخرى . وأحس كذلك بفناء الإنسان والحيوان كل يوم بفعل الزمان وغدره ، وأنه ما دام سيفنى فلماذا لا يخلف صفحة يكون فيها كريما جوادا ، وقويا شجاعا مقداما . يقول الحصين المرى (١) :

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد ... لنفسى حياة مثل أن أتقدما

كان الجاهلى يخشى الزمن فى كل حياته ، وكان هذا الخوف حافزا له كى يسعى وراء المجد والبطولة والشهرة ، وأحيانا حافزا للهرب من واقعه المؤلم حتى لا يشعر بأنه غريب فى هذه الحياة . يقول امرؤ القيس (٢) :

يجول بآفاق البلاد مغربا ... وتسحقه ريح الصبا كل مسحق

ويقول الفحل علقمة بن عبدة (٣) :

فلا تحرمنى نائلا عن جنابة ... فإنى امرؤ وسط القباب غريب

وهذه أعرابية تخاطب جملها فتقول (٤) :

ألا أيها البكر الأبانى إننى ... وإياك فى كلب لمغتربان
تحن وتبكى إن ذا ليلة ... وإنا على البلوى لمصطحبان
وإن زمانا أيها البكر ضمنى ... وإياك فى كلب لشر زمان

وهكذا كانت عناية الشعراء قبل الأسلام بالزمن كبيرة ، فقد عرفوه وهابوه ، ورغم أن معرفتهم به في حدود بيئتهم وقيمهم الاجتماعية والدينية ومعارفهم الفلكية ، فقد ذهلوا بقوته وبالمفاجآت التى يبادئهم بها فقالوا فيه أشعارا كثيرة وفي بعض المواقف بدا كما لو أنه يمارس عليهم ضربا من الطلاسم والأحجية . على أنه كان لكل شاعر نظرته المتأثرة بظروفه الذاتية والاجتماعية فإن اختلافا كبيرا سيظهر في تعاملهم مع الزمن ، حتى كأننا أمام حشد كبير من الأزمنة يعكس كل زمن رؤية الشاعر له ويشرح موقفه . ورغم هذه الاختلافات في الرؤية والميول ، فقد اتفقوا على خوفهم وكرههم للزمن ، مما جعلهم يحذرون دائما غدره ويحاولون الخروج من سيطرته وبطشه ، وقد كثرت تعبيراتهم عن الخوف منه ، وجاهدوا في سبيل الإبقاء عليه ـ فنيا ـ أحد مجالات المآسي التى يثبتون فيها فروسيتهم .

نظر الشاعر إلى الزمن فوجد أن الأيام تمر ، وأن عمره في نقصان دائما، ورأى أن الدهر وإن كان سرمديا فإنه يبدو قصيرا في حق الإنسان،فمهما تمتد سنواته لا يعدو أن يكون يوما أطل بنهار مشمس ، تعقبه ليلة قمراء أو ظلماء، والإنسان آناء الليل وأطراف النهار يذهب ويأتي ويدأب ويجد ، ويروح ويغدو ، والمنية تترصده وترقبه ، فلابد من لقاء الموت ومواجهته . يقول أسامة بن ربيعة (٥) :

الدهرُ يومان ، ليل لا خَفَاءَ به ... وذو حجول يرى أقرانه جُدُدا

لا يبليان ويبلى ما سواهما ... مِنْ قبلنا أفنيا الأموالَ والولدا

ليل ونهار كما ذكرنا ، الليل يمضى ووراءه النهار حاملا المسرة والضياء، فلا يتطرق البلى للنهار أو لليل ، وإنما ذلك يصيب غيرهما ، ولهذا كان الشاعر فى مرحلة من مراحل حياته يتوقف لينظر فى حياته كلها فيجد أن الزمن الذى أعطاه فى شبابه الكثير ، قد شرع يسلبه فى الشيخوخة الكثير أيضا، وبدأت تظهر عليه آثار هذا الزمن من شيب وضعف وعجز أفقده المتعة بالحياة وبالمرأة التى بدأت بالنفور منه ، يقول عبيد بن الأبرص (٦) :

تلك عرسى غَضْبَى تريدُ زِيَالِى ... أَلِبَيْنٍ تريدُ أَمْ لِدَلَالِ
زعمتْ أننى كبرتُ وأنِّى ... قَلَّ مَالِى وضَنَّ عَنِّى المَوَالِى
وصحا باطلى وأصبحتُ شيخاً ... لايُوَاتِى أمثالَهَا أمثالِى

وسئل أحد الشيوخ عن الذى بقى عن عمره فأجاب : " يسبقنى من أمامى، ويدركنى من خلفى ، وأذكر القديم ، وأنسى الحديث ، وأنعس فى الملا ، وأسهر فى الخلا ، وإذا قمت قربت الأرض منى ، وإذا قعدت تباعدت عنى (٧) . ويقول عدى بن زيد (٨) :

نزلَ المَشِيبُ بِفَوْدِهِ لا مَرْحَبَاً ... ورأى الشباب مكانَهُ فتجنَّبَا
ضيفٌ بَغِيضٌ لا أرى له عَضْرَةً ... منه هربتُ ، فلم أَجِدْلِىَ مَهْرَبَاَ

وهكذا ارتبطت مشكلات الجاهلى بالزمن الذى كان فى نظره عدوا متربصا به يتعقبه فى كل مكان ، وقد حاول هذا الجاهلى الهروب منه حينا والوقوف أمامه أحيانا يطاوله ويصارعه .. ولكن هيهات .

***   ***

كان الشاعر عوف بن سبيع ممن يخشون الزمن حتى وهم فى أوج شبابهم وقوتهم ومجدهم ، لأنهم كانوا يعلمون أن أيامهم تجرى بسرعة ، وأن هذا النعيم لايمكن أن يدوم ، وأنه سرعان ما يشعرون بالشيخوخة والمصائب ، فتكون أيامه ثقيلة بطيئة عليهم ، وها هو ذا يقول(٩) :

وما زالت الأيام ترمى صفاته   وتغتاله حتى تَضَعْضَعَ وانْحَنَى

ويقول قس بن ساعدة مصورا قدرة الزمن على الإهلاك(١٠) :

بَرَكَ الزمان على ابن هاتِكِ عَرْشِهِ   وعلى أُذَيْنَةَ سالب الأَنْواحِ

ويقول عمرو بن قميئة(١١) :

رَمَتْنِي بناتُ الدهر مِنْ حيثُ لا أدرِي   فكيفَ بِمَنْ يُرْمَى وليس بِرَامِ
وأفنى ما أفنى من الدهر ليلة   ولم يُغْنِ ما أفنيتُ سلك نظامِ
وأهلكنِي تأميلُ يومٍ وليلةٍ   وتأميلُ عامٍ بعدَ ذاكَ وعَامِ

ويقول المجاح بن سباع الضبى(١٢) :

وأفنانى وما يَفْنَى نهار   وليل كلّما يمضى يعودُ
وشهرٌ مستهل بعد شهر   وحولٌ بعده حولٌ جديدُ

وانقسم الشعراء فى نظرتهم للزمن ـ ماضيا كان أو حاضرا أو مستقبلا ، فمنهم من أراد أن يعيش فى الماضى وذكرياته ، ومعظمهم من الشيوخ لأنهم

زهدوا فى حياتهم ، ويئسوا من جدوى المستقبل • ومن هؤلاء الشعراء عبيد ابن الأبرص الذى أحس بشيخوخته وكبر سنه فقال (١٣) :

هل الليالى والأيامُ راجعةٌ ... أيامَ نحن وسلمى جيرةٌ خُلُطُ
إذْ كلُّنا وَمِقٌ راضٍ بصاحبِهِ ... لا يبتغي بدلاً فالعيشُ مُغْتَبِطُ
والشملُ مُجتمِعٌ فاعتاقَهُ قَدَمٌ ... والدهرُ منه على التحبيبِ والفُرُطُ

فهو يحاول أن يسترجع ذكرياته ويحن إلى الماضى ، لكن الحنين هنا ليس حنينا إلى سلمى بقدر ما هو حنين إلى زمن المتعة والحياة وجمع الشمل •

ومن الشعراء من تشبث بالحاضر وتهالك على العيش فيه ، وهم الفتيان والشبان • يقول امرؤ القيس (١٤) :

تمتّعْ مِنَ الدنيا فإنكَ فانٍ ... مِنَ النشواتِ والنساءِ الحِسانِ
مِنَ البيضِ كالآرامِ والأُدمِ كالدُّمَى ... حواصِنُها والمبرقاتُ رَوانِ

ومنهم من تطلع بالمستقبل لأنه يعلم أنه آت لا محالة ، وأنه لا مفر منه ، فهو يعلم أن الماضى زمن قد انتهى ، وأن المستقبل زمن لا تعرف أسراره لأنه غيب ، ولذلك كان يحس أنه واقع بين طرفين يجذبه كل منهما إليه ، الماضى بما فيه وبما يعلمه ، والمستقبل بما يأمله ويتمناه • وهذا سر خوفه من حاضره واضطرابه فى حياته ، وحزنه الدفين • وإذا كان الماضى لا يعود

والحاضر لا يمنح الشاعر ما يتمناه أو يأمله ، فلا مفر من التذرع بالصبر أملا فى الأيام القادمة ، وبهذا الأمل ، وبتعامله مع الزمن تعاملا خاصا أساسه المهادنة ، بدا الشاعر قويا شجاعا ، كريما جوادا مقداما كما سبق أن ذكرت .

لكن للزمن معان متعددة ومختلفة فى الذهن الجاهلى ، فهو لم يكن واحدا فى أعين الشعراء ونفوسهم ، بل كان عندهم الدهر الذى تتحرك داخله الكائنات ، وهذا ما يمكن تسميته بالزمن الأزلى أو الأبدى ، ولكنهم وجدوا أن ما يتحرك فى هذا الزمن من شمس وكواكب وليل ونهار وبشر وحيوان وجماد جزء منه تماما . إذ لايمكن معرفة الزمن بعيدا عن تلك المخلوقات ، فلولا الشمس ما كان ليل أو نهار ، ولولا الليل والنهار ما شعر الأنسان بشيخوخته ودنو أجله ، ولذلك يمكننا أن نعتبر حياة الأنسان والحيوان كلها قنوات زمنية متلاحقة تنتهى بالمصير المحتوم وهو الموت ، ينج للجميع نسيجه المأسوى الذى لا يبلى قط ، والشاعر إذا ذكر الموت أو المصير أو البقاء أو الفناء - مثلا - فى شعره فإن ذلك يعنى أن اعترافه بالواقع - أى بالقدر الماضى بالنهاية المأسوية - هو جزء من سيطرة الزمن الدهرى عليه . ولكن هذا الدهر الزمنى أو الأزلى الذى أخضع الشاعر لسطوته وكبل إرادته قد أوجد ردودا كثيرة لأفعاله المختلفة والممتزجة بجميع المدركات البيئية سواء المتحركة منها أو الجامدة . فنظرة الشاعر إلى الجبل كمثال على الخلود تعتبر نظرة زمانية يقول زهير بن أبى سلمى (١٥) :

أَلاَ لا أرى على الحوادِثِ باقِياَ ... ولا خالِداً إلاّ الجبالَ الرواسِياَ
أَلَمْ تَرَ للنعمانِ ، كانَ بِنَجْوَةٍ ... مِنَ العيش لو أنّ امرأً كانَ ناجِياَ
فَغَيَّرَ منه مُلْكَ عشرين حِجَّةً ... من الدهر ، يومٌ واحدٌ كانَ غاوِياَ
فَلَمْ أرَ مَسْلُوباً له مثل مُلْكِهِ ... أقلَّ صديقاً باذِلاً ومُواسِياَ

إن خلود الجبل دليل على تغلبه على الزمن ، أما الإنسان فأيامه محدودة وحياته مرهونة بعدد من الأيام .

أما النظر إلى الأحياء التى تمثل البقاء أو الموت فإنها تصير كذلك نظرا زمانيا يلفتنا إلى سحر الأبدية وتوالى الأعصر . إن الشاعر يستخدم صنوف الحيوانات التى يرد ذكرها فى قصيدة الرحلة ونحوها وما توحى به من حياة ليأخذ بألبابنا بما ينتظرها من موت ومصير ، وبما تراه منها من صراع وحرص على البقاء برغم أنف الزمن ، وكذلك الطير الذى يمتثل لضربات القدر معلنا عدم جدوى تميمة الحياة التى سلحه بها جناحاه الخفاقان ، وأحيانا منقاره المعقوف المرهف .

ولا شك أن هذا ونحوه يغرى بموضوعات وجودية ، وأحيانا ميتافيزيقية يراها الشاعر ذات جاذبية فى قصيدته ، فيمعن فى عرضه لها لينقذ بها القلوب ويستولى على الأعماق . وقد تمادى فجعلها مناط إبداعاته فى البطولة والفروسية على أساس أن كلا منهما لا تخطئه جاذبية الزمن .

ولا شك أيضا أننا يمكننا عن طريق تحليل النصوص الشعرية الجاهلية

استخراج جميع آثار الزمن ومعرفة نظرة الشاعر إليها ومدى تأثره بها وهويشمخ بروحه فى قوة وعمق • إن محاولة استرجاع الزمن والعيش فى ذكريات الماضى تكاد تتكرر فى قصائد كثيرة فى الشعر الجاهلى ، فالشاعر يحاول الإفلات من وطأة الزمن الدهرى بخلق زمن خاص به ، وهذا ما يمكن أن نسميه بالزمن الشعرى الخاص بالشاعر • أى أن هناك زمنا نفسيا آخر يتلون به الشاعر جاء نتيجة لأحاسه بجريان أسباب الحياة ، ولهذا لم يكن حديثه عن الزمن غرضا شعريا يشبه باقى الأغراض المعروفة للقصيدة الجاهلية كالفخر والمدح والرثاء والهجاء والغزل وإنما كان الدائرة التى احتوت كل الأغراض التى تحدث عنها الشعراء ومن ثم شاركها الزمن خصائصها •

أقول حاول الشاعر الجاهلى تحدى الزمن المسيطر على كل شئ بمقاومته ومحاربته ، ولم يجد إلا الشعر متسعا لحريته ، ولما يريد أن يقول ، فهو يتسطيع به أن يقف الزمن ويسترجع الماضى فيه فيضعه موضع الحاضر ، ويستطيع أن يطيل الزمن ويقصره كيفيما شاء وفى أى وقت يريد •

وهكذا يمكننا رصد زمن خاص له نكهته لكل قصيدة قالها الشعراء الأقدمون ، ومن أجل ذلك صار الزمن لديهم شغلة لعمليات العقل فى تنوعها المستمر وارتبط بتجربة الشعراء وخيالهم ووجدانهم ، بل أيضا بسعادتهم وبؤسهم وبأشد نزعات الشاعر غموضا والتواء • ومن هنا قد يبدو الزمن بطيئا أو سريعا ، فيكون الليل مثلا فى الزمن الشعرى أو النفسى متعدد الأشكال ، طويلا على الحزين والمريض والمهموم ، كاللمحة على المحب والولهان ، أما إذا خلا الشاعر من

الهموم ووجد ما يلهو به كان وقته قصيرا • وكل هذه الأزمنة نفسية يلبسها الشاعر الأزمنة التي تلائم حالته وميوله وظروفه ، ولكنها مهما تختلف في نظرتهم لها فإن شيئا واحدا يجمعهم ، ونعني به معادلة الليل لمعنى الزمن •

ويمكننا أن نقول إن هذا الزمن الشعري قد خلق معادلا نفسيا لما يعانيه الشعراء من وطأة الدهر عليهم ، أي هم لم ينظروا إلى الزمن الذي تتكون منه الليالي والأيام والسنون ، وإنما نظروا إلى أزمنة خلقوها داخل قصائدهم ومنفصلة عن الزمن العادي ، أي غير مفروضة عليهم في تلك اللحظة التي يتحدثون فيها • يقول امرؤ القيس في وصف محبوبته (١٦) :

يَعَلُّ به بَرْدَ أنيابِـهـــا	إذا طَرَّبَ الطائِرُ المُستَحِـرْ
فبِتُّ أُكابِدُ ليـلَ التَّمـا	مِ والقلبُ مِنْ خَشيةٍ مُقشَعِـرْ

فالليل عند امرئ القيس ليس هو الليل الذي نعرفه ، بل هو ليل خاص به ، ليل طويل لا حدود له ، خرج من جملة الليالي التي تتعاقب حولنا • ويتحدث سويد بن أبي كاهل الشكري عن طيف حبيبته الذي كان يطرقه ليلا فيقول (١٧) :

آنس كان إذا ما اعْتَادَنـي	حالَ دُونَ النوم مِنّي فامتنَـعْ
وكَذاكَ الحُبُّ ما أشْجَعَـهُ	يركبُ الهَولَ ويَعْصِي مَنْ وَزَعْ
فأبيتُ الليلَ ما أرْقُـدُهُ	وبعَيْنَيَّ إذا نَجْـمٌ طَلَـعْ
وإذا ما قلتُ ليلٌ قد مَضَى	عَطَفَ الأول منـه فرَجَـعْ

يحَبُّ الليلُ نُجومًا ظُلَّعًا ... فتواليها بطيئاتُ التبَع
ويُزجّيها على إبطائها ... مُغرَبُ اللَّونِ إذا اللونُ انقشَع

فليل سويد ليل خاص به ، فهو ليس ليلا واحدا ، وإنما ليال متتابعات بطيئة الساعات ، وأصبحت الأوقات والأزمان هنا جديدة ، وهذا ما جعل الشاعر مسهدا مؤرقا ساهرا يرقب النجم .

كثيرا ما تحدث الشعراء الجاهليون عن الموت والدهر والقبر والقدر وقالوا : " إن الدهر لا يبقى على حدثانه "(١٨) وارتبطت نظرتهم تلك بحتمية نوازل القدر مما جعلهم يحولون هذا الواقع الزماني إلى واقع فكرى ، ومن خلال الواقع التأملى كانوا يحاولون أن يرفضوا الثبات والرتابة والديمومة التى من صفات الدهر ، كما رفضوا أن يتحدوا بالزمن حتى لا يكونوا خاضعين له . كان موقف الشاعر من الخلود موقفا وجوديا نشأ من حيرة العربى أمام فكرة الفناء ، إذ لم يكن للعرب دين حين يفقد الأنسان الأحساس بالغاية من وجوده، ولا يتصور له وجودا غير هذا الوجود الدنيوى المؤقت . حينئذ يكون تصوره للزمن مرتبطا بطابع الفقدان وما يجلبه من الحزن سواء كان ذلك فيما يتصل بالحاضر الذى تحقق وكان ، أو فيما يتصل بالمستقبل الذى يرتبط دائما بالقلق على المصير .

فالموقف إذن موقف وجودى يعبر عن افتقاد الغاية والقلق على المصير، وضعف القوى التى تشكل المقاومة بحيث يؤدى ذلك كله إلى حالة من الأذعان التام لما لا يكون مصدر خير وابتهاج فى حياة الأنسان . لقد كان طرفه

ابن العبد مثلا يحاول أن يحقق وجوده بالانخراط فى اللذة رغبة منه فى الانتصار على الموت ، فكان ينفق ما يملكه فى ملذاته ، وكان مذهبه أذن هو اقتناص لذة الحياة خوفا من ضياعها ، ويأسا من دوامها ، ولعل فى تحقيق اللذة انتصارا على الموت ، ذلك أنه إذا كان الموت - كما تصوره الجاهلى - هو نهاية الوجود الأنسانى ، والتوقف عن ممارسة الحياة بكل متعها ، فان الموقف الوجودى للشاعر إنما يبرز هنا عنيفا فى تحديه للفناء وذلك ليس حبا للذة ذاتها ، وإنما حبا فى الحياة وتعلقا بها ، وكراهية للفناء الذى تنقطع به ممارسة اللذات ، وإلى هذا اتجه طرفه فى قوله (١٩) :

فَذَرْنِي أُرَوِّ هَامَتِي فِي حياتِهَا ... مَخَافَةَ شُرْبٍ فِي المَمَاتِ مُصَرَّدِ
كريمٌ يُرَوِّي نَفْسَهُ فى حياتِنَا ... ستَعلَمُ إنْ متْنَا غَداً أينَا الصَّدِي
أرى قبر نَحَّامٍ بَخِيلٍ بِمَا لِهِ ... كقبرِ غَوِيٍّ فى البَطَالَةِ مُفْسِدِ
ترى جُثْوَتَيْنِ مِنْ تُرَابٍ عليهما ... صفائِحُ صُمٌّ مِنْ صفيحٍ مُنَضَّدِ
أرى الموتَ يعتَامُ الكِرَامَ ويَصْطَفِي ... عَقِيلَةَ مالِ الفَاحِشِ المُتَشَدِّدِ

فما دام الموت بالمرصاد لكل شيء فإن الحياة لا تستحق أن تعاش إذا لم يستمتع الشاعر بملذاتها وما فيها من متع ، وكذلك إذا لم يكن كريما جوادا فى حياته فان غيره سيتمتع بماله بعد مماته ، فلماذا إذن لا ينفق هذه الأموال فى حياته ويتمتع بها .

لم يكن الوقوف على الأطلال والبكاء عندها مجرد صنعة فى القصيدة الجاهلية ، بل كان نتيجة حتمية للمعيشة فى البيئة الصحراوية بكل ما فيها

من تحديات . كأنما كان الشاعر بالوقوف على الأطلال يوقف الزمن ويستحضر الماضى ليكون حاضرا أويرجع بالحاضر إلى الماضى البعيد ، وكأنه من جانب آخر يحرك الزمن ويتحكم فيه كما يحركه الزمن الدهرى ويتحكم فيه . ومادام الشاعر قد تمتع فى ذلك الزمان الماضى ، فإن متعته قد تحولت إلى زمن حقيقى. ومن هنا نستطيع أن نقول إن مرور الأيام وانقضاء العمر رويدا رويدا ، هما اللذان نبها الشاعر إلى الحنين إلى الزمن الماضى ، وبما أنه قضى فيه أجمل أيام حياته وأهمها فلا بأس من أن يحن إليه وإلى المتع التى كانت فيه وأن يبكى أيضا على انقضائها .

كانت الأطلال القطعة الزمنية التى ذابت بين جنباتها وأحجارها أغلى ذكريات الصبا وأعز أيام الشباب ، فهى فى نظر الجاهلى الشاهد الوحيد على أيام شبابه ولهوه وقوته وشجاعته ، ولذلك حرص على الوقوف عندها فى مقدمة قصائده إشاره إلى بقايا حياته الماضية ، ورمزا للزمن الذاهب الذى أراد أن يعود إليه ليعيد ماضيه مرة أخرى ويعيش فيه - يقول زهير (٢٠) :

قِفْ بالديارِ التى لم يعفها القِدَمْ بَلَى وغَيَّرَهَا الأرواحُ والدِّيَمْ

ولما عرف هذه الديار وعاد بالزمن الحاضر إلى الزمن الماضى وعاش فيه أخذ يحيى تلك الديار كما لو أنه يحيى أهلها وساكنيها ، فقال :

فَلَمَّا عرفتُ الدار قلتُ لِرَبْعِهَا أَلَا أَنْعِمْ صباحا أيها الربعُ واسْلَمِ

وهكذا ارتبطة حركة الزمن الشعرى عند الشعراء بأفكارهم وعواطفهم

وبحالات متعهم الشخصية وحبهم ومعاناتهم من العشق والهيام ، ففي هذه الحالات يصبح الحاضر ماضيا ، وتتلاشى حدود الزمن ، ومن ثم يمكن أن يطول الليل ويقصر ، فهو ليل لا يخضع لحدود الزمن العادى أو ساعات اليوم ، خلقه الشاعر ليعبر عن لحظات همه وضيقه ، وهنا يطول الليل حتى يصبح لا نهاية له ، فالشاعر يعانى ليلا طويلا أى من زمن صفته البطء الشديد ، خلقه الشاعر من خلال نفسه وهو يعانى ويكابد ليعبر عن حالته الشعوريه الدائمة .

كذلك نجد أن اهتمام الشعراء بذكر بقايا الديار بين الأطلال كالنؤى والأثافى يدل على أنهم كانوا يتخذون منها دليلا على تحدى الزمن ومقاومته والانتصار على الفناء ، يقول الدكتور أحمد الحوفى : " ولكن هذه البقايا عميقة الأثر فى نفس الشاعر لأنها مرتبطة بحب ، فليست جمادات ولا نسيا منسيا ، وإنما هى أحياء ذوات معان ودلالات "(٢١) .

ولم يكن وقوف الشاعر على الاطلال وحرصه على رؤيتها صدفه دائما، ولكنه كان يخلق هذا الموقف ليضع نفسه أمام أطلال كثيرة متعددة ، وليدل على تعدد الخراب وفعل الزمن ، ورغم تعدد هذه الأطلال والأماكن - سواء وقف عليها الشاعر أم لم يقف - فإنها تمثل طللا واحدا بالنسبة للشاعر يعبر فيه عن أبعاد نفسيه وزمانية ومكانية عميقة تجسد فعل الزمن وتأثيره ، ويجد فيها متنفسا له ولشعوره وتعبيره .

ولا شك أن الشاعر الجاهلى كان ينظر إلى ما حوله من خلال ذاته ومن خلال ما يعانيه وما يشعر به ، ولذلك كان عند إحساسه بالزمن وآثاره وأفعاله

يهرب إلى الدخول فى زمنه الخاص به فيعيش فى فترة تتلاشى فيها حدود الزمن، حيث الماضى حاضر والحاضر ماضى داخل القصيدة ، ونتيجة لهذا الصراع النفسى الداخلى وهذه المعاناة التى من صفتها الأقدام والأحجام ، كان الشاعر يعبر عن مقاومة ما للزمن فى بقاء هذه الأطلال ، وحيث إن الزمن لايمكن أن يقاوم " فإن موقف الشاعر أمام الأطلال موقف انسانى ، وتجربة تمثل الصراع الذى يحدث فى نفوسنا جميعا عند كل حدث جديد فى الحياة ، عندما يقف الانسان حائرا بين ماضيه العذب وبين مستقبله وما فيه من حياة مجهوله ، إنه موقف الأنسان الواعى بالحياة مع شعوره بضعفهأمام قوة الطبيعة"(٢٢).

وهكذا يمكننا القول إن ظاهرة الأطلال فى الشعر الجاهلى ظاهرة عميقة ذات أبعاد وتأثيرات مختلفة ، وبأنها " أكثر من تعبير عن الواقع الجاهلى كقائم راهن ، لأنها تجسد برهة التحول من الماضى إلى المستقبل ، إذ هى تختزن الماضى كنقيض مباشر للحاضر ، وكمطابق صميمى للمستقبل المأمول"(٢٣).

إن البناء الزمنى الداخلى للقصيدة يظهر فى كل الصور الجزئية ـ المقاطع المكونة للصورة الكلية العامة للقصيدة ـ التى يتحدث عنها الشعراء.فالأطلال ورحلة الشاعر وما يظهر فيها من حيوانات كلها يتحكم فيها عنصر الزمن، وهذا مايريد أن يصل اليه الشاعر . إنه يرى أن نهاية الحيوان تكون إما بانتهاء فصل الصيف كما فى صورة الحمار الوحشى وأتنه ، وإما أن تكون النهاية بظهور صياد وكلابه عند الصباح ، فإما النجاة وإما الموت كما فى صورة الثور الوحشى، وقد يكتفى الشاعر بالحديث عن الناقة فقط ولكن من خلال الزمن

أيضا، فهى تعانى شدة البرد وشدة الحر وتلجأ إلى الظل . ولا شك أن حرص الشاعر على ذكر هذه الصور يأتى كقيمة زمنية ، وكرد فعل للمتأمل فى مظاهر الكون ورؤية فعل الدهر فى الأحياء ومن الصراع ضد الفناء ومن أجل البقاء .

ويبدو أنه كان لرحلة الشاعر فى القصيدة الجاهلية علاقة بالزمن كذلك ، وهو بعد بكائه على الزمن الذى ولى وذهب معه شبابه وسعادته ، بضيق [illegible] وعندما أرادأن يهرب من أحزانه وغربته لم يجد سوى ناقته ـ أو حصانه ـ ترافقه فى رحلة عبر الصحراء ، وسواء كانت تلك الرحلة للبحث عن الحبيبة أو للذهاب إلى الممدوح فإنه يتخذ من ناقته وسيلة لتبعده عن آثار الماضى التى هيجت مشاعره وأحزانه ، وربما تبعده عن واقعه وزمنه الحاضر المؤلم أيضا . إتخذ الشاعر ناقته رمزا لذاته ، فالناقة فى أثناء سيرها وجريها فى الصحراء تشعر بالغربة ، وتتألم وتقاسى كما يشعر الشاعر ويقاسى أيضا ، وهو عندما يشبه تلك الناقة بالثور الوحشى وصراعه من أجل البقاء مع الكلاب والصياد فانه يخلق معادلة لحالته ولصراعه مع القدر والزمن. ومن ثم يمكن اعتبار لوحة الناقة ـ المشبه به للشاعر ـ ولوحه الثور الوحشى ـ المشبه به للناقة.لوحات نفسية تعبر عن نظرة الشاعر للحياة واحساسه بمدى قسوة الزمن والدهر عليه وعلى الأحياء أيضا . ومن هنا يتضح لنا مبرر تلك الرحلة التى رسم حدودها ومعالمها ، وكأنه برحيله وسفره يريد أن يتخلص من همومه التى سببها الزمن. ومن ثم كثر السفر فى الشعر الجاهلى هروبا من غربة شاملة حيث لم يعد يقوى على احتمالها إلا الهارب من أحزانه .

*** ***

لم يكن الزمان والمكان في الشعر الجاهلي عنصرين منفصلين ، بل كانا قضية واحدة ، ذلك لأن الشاعر قد عبر عن المكان بالنظر إلى تأثره بالزمان. يقول المرقش الأكبر (٢٤) .

سَرَى لَيْلاً خيالٌ مِنْ سُلَيْمَى … فأَرّقني وأصحابي هجودُ
فبِتُّ أُدِيرُ أمْرِي كُلَّ حالٍ … وأَرْقُبُ أهْلَهَا وهُمُ بعيدُ
على أنْ قد سما طَرْفِي لِنَارٍ … يُشَبُّ لها بذِي الأَرْطَى وَقُودُ
حَوَالَيْهَا مَهاً جُمُّ التَّرَاقِي … وأَرْآمٌ وغِزْلانٌ رقودُ
نَوَاعِمُ لا تُعَالِجُ بُؤْسَ عَيْشٍ … أوانسُ لا تُرَاحُ ولا تَرُودُ
يَرُحْنَ مَعاً بِطَاءَ المَشْيِ بُدّاً … عليهن المَجَاسِدُ والبُرُودُ
سَكَنَّ بِبَلْدَةٍ وسَكَنْتُ أُخْرَى … وقُطِّعَتِ المواثقُ والعهودُ
فما بَالِي أَفِي ويُخَانُ عَهْدِي … وما بَالِي أُصَادُ ولا أَصِيدُ

فها هنا الشاعر يعاني شقاء مكانيا وزمانيا نتيجة محاربة القدر له. فهو في مكان وسلمى في مكان آخر ، وانقطعت المواثيق والعهود بينهما ، وأنه برغم وفائه يخان عهده ، ويصاد ولا يصيد .

وإذا كان الزمان قد لعب دورا مهما في وجدان الشاعر الجاهلي - كما سبق أن أوضحت فإن المكان قد لعب الدور نفسه أيضا ،وأن ظاهرة الأطلال - التي تكرر ظهورها وتعددت عند كثير من الشعراء - لم تكن في الحقيقة مجرد بكاء وتقليد تناوله اللاحقون عن السابقين ، بل هي ظاهرة معقدة تحوي عناصر الزمان

المكان . فالمكان / الأطلال / يتحول إلى رموز لفعل الزمن كما سبق أن أوضحت ، لكنه بجانب ذلك يعبر عن الواقع النفسي الداخلي للشاعر . فهو متـــــردد، نراه يسأل تلك الأطلال محاولا استنطاقها وتحيتها ثم لومها على عدم رد التحية التعجب من ذلك . وكأنه يدور في حلقة ليس لها بداية ولا نهاية ، وهكـــذا تضح مدى قدرة الأطلال على كشف أغوار نفسية الشاعر وأبعادها المكنونة .

من الملاحظ أن الحديث عن الطلل لم يأت دائما في أول القصيدة ، فمنه ا أتى داخل القصيدة ، أي عقب بدايتها بعدة أبيات (٢٥) ، وبجانب ذلك نجد ى كثير من الأحيان أن هنالك قصائد تتحدث كلها عن الأطلال حيث يرى الشاعر ه قد حقق ما يريد أن يقوله من أفكار ومعان أثناء الحديث عنها ، وبذلك صبح الأطلال غاية في ذاتها وليست مقدمة أو تمهيدا للقصيدة (٢٦) .

تحدث الشعراء في أثناء عرضهم للأطلال عن العفاء والخراب والاقفـــار الوحشة ، ووصفوا بقايا الديار التي لم يستطع الزمن تدميرها أو افناءها ، كما صفوا آثار الرياح والعواصف والأمطار وفعلها بالأطلال . وهذا ينم عن تـــردد فسي داخلي مبعثه الواقع الظاهر حيث الخراب والأحجار وبقايا الأماكن التـــي انت عامرة وتمثل الماضي الذي أثارته الذكرى وأفناه الزمن . فالشاعر عندما رى الأطلال على حقيقتها ماثلة أمام عينيه يكون في حالة وعي ولكن عندما يغيم ذا الواقع المؤلم ويتلاشى يتحول الطلل إلى ذكرى جميلة يسعد فيها الشاعر ذكريات أيام الشباب واللهو التي قضاها بين جنبات هذا المكان ، وعندمـــا فيق ويعود إلى صحوه يصدم مرة أخرى بواقعة المؤلم .

لم يكتف بعض الشعراء بالوقوف على طلل واحد في القصيدة الواحدة وإنما تعددت عندهم الأطلال ، يقول عبيد بن الأبرص (٢٧) :

أَقفرَ مِنْ مَيَّةَ الدَّوافِعُ مِـنْ ... خَبْتٍ قُلبنَى فَيحَّيانُ فالرجـلُ
فالقُطبِيَّاتُ فالدَّكادِكُ فالـ ... سَهْبُ فأعلَى هبيرة السَّهـلُ
فالجُمَدُ الحافظُ الطريقَ من الـ ... ـزيغِ فَصَحْنُ الشَّقِيقِ فالأَمـلُ
فالطَّلْبُ فَالحَدُّ من تَبالَـةَ لا ... عَهْدَ لهُ بالأَنيسِ ما فَعَلـوا
كأنَّ ما أبقَتِ الرَّوامِسُ منـ ... ـه والسنُونَ الذَّواهِبُ الأُوَلُ
فَرْعٌ قَفِيمٌ غَلاَ صَوانِعُـهُ ... في يمنى العِيَابِ أو خِلَـلُ

فعبيد يعدد الأماكن ليدل على تعدد الخراب وإظهار فعل الزمن ، وهو يحاول بذلك الخروج من الزمان والمكان الواقعيين إلى زمان ومكان آخرين خاصين به ، يدور فيهما وجودا وعدما ، حقيقة ووهما ، وهذا يوضح مدى تأثير ظاهرة الأطلال في وجدان الشاعر الجاهلي وفي نفسيته ، فخروج الشاعر من الواقع المكاني الزماني وتحويل المكان البالي إلى مكان حي ينعم فيه بالسعادة ، يدل على مدى عمق إحساس الشاعر وتحول هذا الأحساس إلى رؤية حدسية قوية عميقة في شكل تعبير شعرى فنى • إن وقوف الشاعر ـ كما سبق أن ذكرت ـ أمام الأطلال " موقف إنسانى وتجربة تمثل الصراع الذى يحدث فى نفوسنا جميعا عند كل حدث جديد فى الحياة ، وعندما يقف الأنسان حائرا بين ماضيه العذب وبين مستقبله وما فيه من حياة مجهولة ، إنه موقف الانسان الواعى بالحياة مع شعوره بضعفه أمام قوة الطبيعة (٢٨) وهكذا يحرص الشعراء على الوقوف على

الأطلال ، والدليل على ذلك الدعوة المستمرة منهم إلى الوقوف على الديار البالية حيث يجدون متنفسا لهم ولشعورهم نتيجة تعمق نظرتهم وانفعالهم القوى .

تأثر الشاعرالجاهلى أيضا باتساع الصحراء وسكون القفار ، فالاتساع مع السكون عمل فى تصور العربى على نحو كبير فعال ، وعمل على تعميق النظرة عنده ، وذلك لأن الصحراء سر غامض ، وقوة خفية باعثة على التأمل العميق وليست باعثة على الجمود والسذاجة والسطحية كما يظن بعض الباحثين ، يقول الدكتور درويش الجندى أثناء حديثه عن ذكر الجن فى الشعر الجاهلى : " ومهما يكن من شئ فإن هذه التصورات والتخيلات عند العرب كانت بعيدة عن التصوير الشاذ الغريب الذى بدا لدى الرمزيين الغربيين .. إذ كانت تجرى عندهم مجرى الحقيقة المألوفة لسذاجتهم ولجريانهم فى تصويرها مجرى الحقائق الملموسة والأسناد الواقعية ، ولم يجعلوها وسيلة لعلاقات بعيدة خفية بين الكائنات "(٢٩) ونحن لا نرى أية سذاجة فى هذا ، ذلك لأن التصور فى الشعر ليس تصورا حياتيا قدر ما هو تصور شعرى ، ومن ثم فإن هذا التصور كان وسيلة قوية لعلاقات خفية بعيدة الأغوار فى نفس الجاهلى مرتبطة ببيئته وحياته ومكانه .

كان لاتساع الصحراء إذن أثر كبير فى حفز ملكة الخيال والتصور عند الشاعر الجاهلى ، فتخيل وتصور أشياء لا وجود لها فى واقعه مثل الجان والسعلاة وغيرها ..ونجده أثناء وصف رحلته يتحدث عن " عزف الجنان " فى

تلك الصحراء المترامية الأطراف وكأنه يربط بين توحش الصحراء الواقعي بالتوحش الخيالي . يصف زهير فلاة فيقول:(٣٠)

وبلدةٍ لا تُرامُ خائفةٍ زوراءَ مُغبرةٍ جوانبُها
تسمعُ للجنِّ عازفينَ بها تضبحُ من رهبةٍ ثعالبُها

ويقول عنترة بن شداد(٣١) :

والجِنُّ تفرقُ حول غاباتِ الفلا بهماهمٍ ودمادمٍ لم تُنفلِ

ويقول المتنخل الهذلي(٣٢) :

وخرق تعزف الجنانُ فيه بعيد الجوفِ أغبر ذى انخراطِ

ويقول كعب بن زهير(٣٣) :

وعلمتُ أنى مُصبحٌ بمضيعةٍ غبراءَ تعزفُ جنُّها مذكارُ

ويبدو أن حرص الشعراء على الحديث عن هذه التصورات فى أشعارهم قد أحالها مخلوقات حقيقية يمكن مخاطبتها ومحادثتها ومن ثم يتحول الأدراك التصورى إلى اعتقاد تصورى حتى أصبح الناس يعبدون الجن وهم لا يشاهدونهم أو لا يشاهدون ما يدل على وجودهم ، يقول زهير(٣٤) :

بخيلٍ عليها جِنّةٌ عبقريةٌ جديرون يوما أن ينالوا ويستعملوا

وهكذا ارتبطت أفكار الجاهليين وتصوراتهم بالبيئة الجاهلية مما ساعد

على خلق تصورى أسطورى انعكس فى أشعارهم ومن ثم أصبحت مدركات هذه البيئة مؤثرة وموحية بالأبحاث الميثولوجية ٠

ومهما يقل عن هذه المخلوقات يبدو أن الدافع الذى جعل الشاعر الجاهلى يتخيلها جاء من محاولته الإستئناس بها والحديث معها بلغة الشاعر نفسه ، يقول زهير (٣٥) :

وَمَرْقَبَةٍ عَرْفَاءَ أَوْفَيْتُ مُقْصِرًا لِأَسْتَأْنِسَ الأشباحَ منها وأَنْظُرَا

كان لقسوة الصحراء الموحشة والوديان المقفرة ردود فعل عند الشاعر : رد فعل تصورى خيالى حيث يخلق مخلوقات تؤنسه فى وحدته ووحشته ورد فعل سلوكى يتمثل فى اتجاهه إلى البطولة والفروسية حيث لا صديق له إلا سيفه ورمحه وشجاعته يحافظ بها على أرضه ووطنه وقبيلته ٠ معنى ذلك أن ارتباط الجاهلى بالمكان ـ الصحراء ـ خلق واقعا مكانيا كان السبب الحتمى لظهور البطولة والفروسية ٠

ولا شك أن ما نقرأه عن ظهور البطولة وانتشارها فى العصر الجاهلى كان نتيجة للأحساس بالانفصال عن المكان ، فالسير فى الصحراء معركة ضارية وقتال ضد أمور كثيرة يعرف الشاعر بعضها وخفى عنه البعض الآخر ، وهذه الأمور الخفية هى التى جعلته متحفزا دائما مستعدا متسلحا بالشجاعة والقوة ، تماما مثل الفارس الذى يوقن بأنه سيواجه الموت فى ميدان المعركة ولكنه لا يعرف متى وكيف ٠٠ أى أنه سائر إلى حتفه ومع ذلك يقبل عليه ، وهكذا نجد أن

الموت والأقبال عليه حياة ، وكأنه يحيا بالموت ، ويبدو أن قصة طرفة بن العبد المعروفة مع عمرو بن هند تؤكد ذلك ، فرغم أن طرفه يعرف ما في رسالة عمرو إلى عامله - والتى يأمره فيها بقتل طرفة - إلا أنه لم يهرب ، واستمر في السير حتى لقى مصرعه على يد هذا العامل .

حاول الجاهلى أن يغير دائما واقعه ، وأن يقاوم الوضع المفروض عليه، وذلك من خلال تغلبه على الطبيعة وعلى الفضاء الرهيب من حوله ، وكأنه يثأر لنفسه منها ، ظنا منه أن تغيير الواقع اثبات لذاته ووجوده وهكذا يظل يسعى إلى الحياة عن طريق القتال أو الارتحال ، فأصبح كثير الحركة دائب النضال .

وقد ارتبط المكان بالمرأة أيضا ، وكان رحيلها وبعدها عن الشاعر سببا له أبعاد نفسية وتصورية ، وقد دأب على أن يتخيل طيفها الذى يأتيه من وقت إلى آخر كانه حقيقة ، بل أصبح يراها فى قصيدته من خلال الخصب مجسدة دما ولحما وجمالا متدفقا ، ومن يرجع الى الشعر الجاهلى يجد أن الطيف وقرينه الخيال قد احتلا مساحة واسعة فى أثناء الحديث عن المرأة . من ذلك مثلا قول النمر بن تولب (٣٦) :

أَلَمَّ بصحبتى وهُم هجُودُ ... خيالٌ طارقٌ مِنْ أمّ حِصْنِ

ويقول خفاف بن ندبة (٣٧) :

أَلا طَرَقَتْ أَسْمَاءُ فى غير مَطْرَقِ ... وأنّى إذا حَلّت بنَجْرانَ نلتقى

سَرَتْ كلَّ وادٍ دون زَهْوَة دافِعٍ ... وَجِلْذانَ أَوْ كَرْمٍ بِلِيَّةَ مُحْدِقِ

تَجَاوَزَتِ الأَغْرَاضَ حتى تَوسَّدَتْ ... وِسَادِي بِبَابٍ دُونَ جِلْذَانَ مُغْلَقِ
بِغُرِّ الثَّنَايَا خَيْفَ الظَّلْمِ نَبْتَهُ ... وَسُنَّةِ رِئْمٍ بالجُنَيْنَةِ مُونِقِ
وَلَمْ أرها إلاَّ تَعِلَّةَ ساعَةٍ ... على ساجِرٍ أَوْ نَظْرَةً بالمُشَرَّقِ
وحيثُ الجَميعُ الجالسون بَرَاكِسٍ ... وكان المِحاقُ مَوْعِداً للتفرق
بَوَجٍّ وما بَالِي بَوَجٍّ وبَالُهَا ... وَمَنْ يَلْقَ يوما جِدَّةَ الحُبِّ يَخْلُقِ

فطيف الحبيبة تخطى الوديان والوهاد واستقر عند الشاعر وهذا ما جعله يعجب ، فالشاعر لا يعجب من طروق الخيال اليه ولكن من سرعة سريانه ووصوله اليه ، وكأن الطيف قد أصبح حقيقة واقعة يحس به الشاعر فيخاطبه ويتحدث معه ويعي قدومه وأرتحاله .

ويتعجب أيضا معاوية بن مالك من اقتحام طيف حبيبته مضارب خيامه والوصول اليه رغم بعدها عنه ورغم يقظة بعض قومه فيقول (٣٨) :

طَرَقَتْ أُمامةُ والمَزارُ بعيدُ ... وَهْناً وأصحابُ الرِّحالِ هجودُ
أنَّى اهتديت وكنتِ غيرَ رَجِيلَةٍ ... والقومُ منهم نُبَّهٌ ورقودُ

ويقول قيس بن الخطيم (٣٩)

أنَّى سَرَبْتِ وكنتِ غير سَرُوبِ ... وتقرِّبُ الأحلامُ غيرُ قريبِ
ما تَمْنَعِي يَقْظَى فقد تُؤْتِينَهُ ... في النوم غيرَ مصرَّدٍ مَحْسُوبِ
كَانَ المُنَى بِلِقَائِهَا فَلَقِيتُهَا ... فَلَهَوْتُ مِنْ لَهْوِ امرئٍ مَكْذُوبِ
فرأيتُ مثلَ الشمس عندَ طلوعِها ... في الحُسْنِ أَوْ كَدُنُوِّهَا لِغُرُوبِ

ولا شك أن قول الشاعر " كان المنى بلقائها فلقيتها " يوضح أن الطيف قد أصبح حقيقة وكأنها زارته فى الحقيقة لا فى الخيال • ويقول سويد بن أبى كاهل اليشكرى أيضا[٤٠] :

هَيَّجَ الشوقَ خيالٌ زائرٌ ... مِنْ حبيبٍ خَفِرٍ فيه قَدَعْ
شاحِطٍ جَازَ إلى أرحُلِنَا ... عُصَبَ الغَابِ طُرُوقاً لم يُرَعْ
آنسٍ كان إذَا ما اعْتَادَنِى ... حالَ دونَ النومِ مِنِّىَ فامْتَنَعْ
وكذاكَ الحُبُّ ما أشْجَعَهُ ... يركبُ الهَوْلَ ويَعْصِى مَنْ وَزَعْ

فالخيال يطرقه بعد أن قطع المسافات الطويلة ، ولذلك امتنع عن النوم حتى يأتنس به ، ثم يصرح الشاعر بأن سبب ذلك الحب المسيطر الذى لا يملك الأنسان معه شيئا •

وهكذا أصبح المكان سببا مهما من أسباب التفرقة بين الشاعر وبين من يحب فى نظر الجاهلى ومن ثم أصبح مصدرا لتصورات خيالية تلهب مشاعرالشاعر يقول سويد بن أبى كاهل[٤١] :

كَمْ قَطَعْنَا دونَ سَلْمَى مَهْمَهاً ... نازحَ الغَوْرِ إذا الآلُ لَمَعْ
فى حَرُورٍ يَنْضَجُ اللحمُ بها ... يأخُذُ السائرُ فيها كالصَّقَعْ
وتَخَطَّيْتُ إليْهَا مِنْ عِدًى ... بِزَمَاعِ الأمرِ والهَمِّ الكَنِعْ
وفلاةٍ واضحٍ أقرابُهَا ... بَالِيَاتٍ مثلُ مُرْفَتِّ القَزَعْ
يَسْبَحُ الآلُ على أعلامِهَا ... وعلى البِيدِ إذا اليومُ مَتَعْ

فهو يصور محاربة المكان له ووقوفه عقبة بينه وبين محبوبته ، ولكن مهما تباعدت تلك الحبيبة فان خيالها وطيفها يطرقانه من وقت لآخر مجتازين كل مايقف في طريقهما من صعوبات وعقبات . وهكذا استطاع الشاعر بخياله أن يقضي على تلك المسافات البعيدة ، وأن يجتازها نفسيا واقعيا .

وعلى أية حال فان علاقة الشاعر بالمرأة قد تأثرت بالمكان ، وأنه لولا هذا التأثر لما أبدع الشاعر ولما رأينا الطيف والخيال ، ومخاطبة الرمال والرياح والجن ، ولولاه ما امتلأت القصائد بالشكوى والبكاء ، وبوصف رحلة الظعن بما فيها من ظعائن وجمال وهوادج . ولولاه أيضا ما رأينا هذا الابداع الفني في وصف حيوان الصحراء سواء بين الأطلال أو من خلال مشاهداته أثناء الرحلة .

*** ***

أما الجبال كمدرك بيئي فقد لفتت نظر الجاهلي - مثل الصحراء الشاسعة المكشوفة - وأجبرته على التأمل ، وانتهى الى أنها ترمز الى الخلود والثبات والاستمرارية ، ومن هنا وصفت بالشموخ والصمود والتمنع والعظمة ، وهذه صفات مرتبطة بالأزل ، وهكذا نرى أن الشعراء عند وصفهم للجبال في قصائدهم لم يقصدوا وصفا لذاته وانما تجاوزه الى أشياء أخرى أكبر بعدا وأعمق أثرا، فاتحد المكان مع الزمان لتتحول بهما الشاعرية الى ضرب من السحر الأيحائي ، يقول زهير (٤٢) :

أَلاَ لَا أرى علـى الحوادثِ باقِيـاً ولا خالِداً إلاَّ الجبـالَ الرَّواسِيـا

وإلاّ السماءَ والبلادَ وربَّنا — وأيامَنا معدودةً والليالِيا

ويقول لبيد بن ربيعة(٤٣):

إنْ يكنْ في الحياةِ خيرٌ فقد أنـ — ـظِرتُ لو كان ينفعُ الأنظارُ

عشتُ دهراً ولا يدومُ على الأيـ — ـامِ إلاّ يرمرمٌ وتِعارُ

وكلافٌ وضلفعٌ وبضيعٌ — والذي فوقَ خُبّةٍ وتِمارُ

فكلها أسماء جبال ـ أماكن ـ تبعث عدة شرارات تخرم فينا ما يمكن آن نستعير فى وصفه قول الشاعر الرمزى بودلير الذى لخص فيه تجربة أى شاعر قديم لفهم مغناطيسية القوة الشعرية على طول الآزمان وهى تعيد خلق الواقع " إن القدماء خلطوا أملا بين الشعر والسحر " والسحر يعنى الجاذبية السالبة للأرادة بالمعنى الكامل لهذه الكلمة "(٤٤).

وبعد .. فقد عاش الشاعر الجاهلى إذن واقعية البيئة الطبيعية بكل ما تشمله من مدركات ومن واقع زمانى يتمثل فى الشعور بالموت والفناء، وبالقدر نفسه يتمثل فى إحساسه بحتمية الحركة والسعى لمجابهة قوة البيئة وعنتها ، وبرغم أن هذين الواقعين يشكلان قضية واحدة باعتبارهما عنصرا الحياة المتداخلين فقد ميز كلا منهما بردود فعلية سجلتها نفسه وتفكيره وتصوراته بشتى الصور. ولما كانت بيئته قاسية جابه قسوتها بقسوة وقوتها بقوة ، فأعاد بذلك توازنه النفسى ومن هنا نستطيع أن نفهم ظاهرة الفروسية فى جوانب معيشته ، حتى عندما يعقر ويعاقر ، وعندما يشرب ويتمم الأيسار ، ويفك الأسرى ويقتحم خدور النساء والقوم فى غفلة !

المصادر والمراجع والتعليقات

١- أبو علي أحمد بن محمد بن الحسين المرزوقي ، ديوان الحماسة ، نشر أحمد أمين وعبد السلام هارون ،مج ١ (القاهرة:لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٨م) ، ص ١٩٧ .

٢- امرؤ القيس ، الديوان ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم (القاهرة: دار المعارف ، ١٩٦٩م) ، ص ١٧١ .

٣- علقمة بن عبده (الفحل) ، الديوان ، تحقيق لطفي الصقال ، (حلب: مطبعة الأصيل ، ١٩٦٩م) ، ص ٤٨ .

٤- وهب رومية ، الرحلة في القصيدة الجاهلية (بيروت : مطبوعات اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، ١٩٧٥م) ، ص ١٦٥.

٥- أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري ، الحماسة ، تحقيق لويس شيخو (القاهرة : دار الكتاب العربي ، ١٩٦١م) ، ص ٩٤ .

٦- عبيد بن الأبرص ، الديوان ، تحقيق الدكتور حسين نصار ، (القاهرة: مطبعة مصطفى الحلبي ، ١٩٥٧) ، ص ٦-١وما بعدها .

٧- أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري ابن قتيبة ، عيون الأخبار ،مج ٦ (نسخه مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٦٣م) ص ٢٢٠ .

٨- عدي بن زيد ، الديوان ، تحقيق وجمع محمد جبا المعبيد (بغداد :مطبعة الجمهورية ، ١٩٦٥م) ، ص ١١٣ .

٩- أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني ، المعمرون والوصايا، تحقيق عبدالمنعم عامر مج٢(القاهرة:داراحياءالكتب العربية،١٩٦١)،ص٢٩٨.

١٠- أبو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب الهمداني ، الإكليل ، تحقيق محمد بن علي الأكوع ، مج ٢ (بغداد: دار الحرية ، ١٩٨٠) ص ٢٨٨ .

١١- عمرو بن قميئة ، الديوان ، تحقيق خليل ابراهيم العطية(بغداد :دار الحرية ، ١٩٧٢) ، ص ٣٩ .

١٢- محمد أبو عبيدالله محمد بن عمران المرزباني ، معجم الشعراء ، تحقيق عبدالستار فراج (القاهرة : دار احياء الكتب العربية، ١٩٦٠م) ، ص ٤٦١ .

١٣- عبيد بن الابرص ، الديوان ، ص ٩٣ .

١٤- امرؤ القيس ، الديوان ، ص ٨٧ - ٨٨ ،الأدم : اللاتي يخربن إلى السمرة ، الحواضن: العفائف - المبرقات من النساء: اللواتي يبرزن حليهن ومحاسنهن للرجال - الروائى :الدائمات النظر .

١٥- زهير بن أبي سلمى ، شرح الديوان (القاهرة مطبوعات الدار القومية سنة ١٩٦٤) ، ص ٢٨٨، النجوة : المعزل - النــاوى: الواقع في الهلاك - الباذل : المعطى .

١٦- امرؤ القيس ، الديوان ، ص ١٥٨ .

١٧- المفضل بن محمد بن يعلي الكوفي الضبي ، المفضليات ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون (القاهرة:طبعة دار المعارف ، ١٩٦٣) ، ص ١٩٢٠ وزعه: كفه - ظلعا، العرج في المشي ، ويقصد شدة بطئها ، التوالي:الأواخر

يزجيها : يسوقها برفق ـ المغرب : الأبيض ، يعنى بياض الصبح ـ انقشع : ذهب ٠

١٨ـ انظر ديوان الهذليين ، ج ١ (القاهرة : " جمع ": دار الكتب المصرية ، ١٩٥٠م) ، ص ٤ ، ٧ ، ١٥ ٠

١٩ـ طرفة بن العبد، الديوان ، تحقيق الدكتور على الجندى (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٨) ، ص ٥١ ، ذرينى:اتركينى ـ هامتى: المراد بها نفسى ، والهامة فى الأصل: الرأس ـ المبرد :المقطع ، أى شربا مقطعا لا يروى ـ الصدى : العطشان ـ نحام : حريص على المال ـ غوى : ضال ـ جثوتين : كومتين من التراب ـ صفائح: حجارة عريضة رقيقة ـ صم : صلب ـ منضد: بعضه فوق بعض ـ يعتام يختار ـ المتشدد: البخيل ٠

٢٠ـ زهير بن أبى سلمى ، الديوان ، ص ١٤٥ ٠

٢١ـ أحمد الحوفى ، الغزل فى الصر الجاهلى (القاهرة : مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٢) ، ص ٣٠٦ ٠

٢٢ـ محمد زكى العشماوى ، قضايا النقد الأدبى والبلاغة (الاسكندرية : دار الكتاب العربى للطباعة والنشر،١٩٨٥م)، ص ١٠٤٠

٢٣ـ يوسف اليوسف ، مقالات فى الشعرالجاهلى (دمشق: منشورات وزارةالثقافة، ١٩٧٤م) ، ص ١٢٠ ، ١٢١ ٠

٢٤ـ الضبى ، المفضليات ، ص ٢٢٣ـ٢٢٤، سما: ارتفع ، يشب : يرفع الحطب حوليها ـ الأرطى : شجر ينبت فى الرمل ـ المها :بقر

الوحش ـ جم التراقى : لاحجم لعظامها، قد غمرهـا اللحم ـ الآرام : الظباء البيض ـ البد : الكثيرة لحم الفخذين ـ المجاسد : الثوب المشبع بالزعفران وهـو الذى يلى الجسد ٠

٢٥ـ الشماخ بن ضرار الذبيانى ، الديوان ، تحقيق صلاح الدين الهادى(القاهرة: دار المعارف ، ١٩٦٨م ، ص ٢٤١،٢٦١،٢٦٢، والمفضليات ص ص ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٨ ، ١١٣،٢٠٩، ٣٥٧، والأصمعيات ، ص ص ٢١٢، ٢٢٦، وديوان امرىء القيس ، ص ص٣٠٠ ، ٣٠١، وديوان عنترة ، ص ص ١٥٧ ، وديوان زهيـر، ص ص ١٢٤ ، ١٢٦ ٠

٢٦ـ انظر مثلا ديوان لبيد، تحقيق الدكتور احسان عباس ، (الكويت : وزارة الارشاد والأنباء، ١٩٦٢م) ، ص ص ٣١، ١٢٣، ١٢٤،١٩٦، وديوان حسان بن ثابت ، تحقيق سيد حنفى (القاهرة: مكتبة الشباب ، ١٩٧٤م) ، ص ٢٧٩، ٢٨٠ ٠

٢٧ـ انظر مثلا :ديوان عبيد بن الأبرص ص ص ٢٣،١٠٤،١١٣،١٤٥، وديوان لبيد ص ص ٣١،٩٦،١٢٢،١٥٩،١٧٠،١٧٤،١٥٦،٢٠٥، وديوان امرىء القيس ، ص ص ٨ ، ٧٨،١١٤،١١٩،٢٥٥، وديوان النابغة ص ص ١٩،٦١،٧٨،٨٨،١٠٥،٢٠٩،٤٠٧، وديوان زهير ص ص ٤،٥٦،٥٧،١١٦،١٢٦،١٢٧،٢١٩، والمفضليات ص ص ٨٨،١٠٥،٢٠٩،٤٠٧ ٠

٢٨ـ محمد زكى العشماوى ، النابغة الذبيانى (القاهرة : دار المعارف ،١٩٦٨)، ص ١٠٤ .

٢٩ـ درويش الجندى ، الرمزية فى الأدب العربى (القاهرة : دار النهضة ، ١٩٧٤) ، ص ١٥٣ .

٣٠ـ زهير بن أبى سلمى ، الديوان ، ص ٢٦٥ .

٣١ـ عنتره بن شداد ، الديوان ، ص ١٣٨ .

٣٢ـ ديوان الهذليين ، مج ٢ ، ص ٢٨ .

٣٣ـ كعب بن زهير ، الديوان ، ص ٣٦ .

٣٤ـ زهير بن أبى سلمى ، الديوان ، ص ١٠٣ .

٣٥ـ زهير بن أبى سلمى ، الديوان ، ص ٢٦٢ .

٣٦ـ النمر بن تولب ، الديوان ، (تحقيق نورى حمود القيسى(بغداد :مطبعة المعارف ، ١٩٦٩م) ، ص ذ١١ .

٣٧ـ أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى ، الاصْمعيات ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون ، ط ٣ (القاهرة: دار المعارف ، ١٩٦٤م) ، ص ص ٢١، ٢٢ .

٣٨ـ الأصمعى ، ص ٢١٢ .

٣٩ـ قيس بن الخطيم ، الديوان ، تحقيق ناصر الدين الأسد(القاهرة:مطبعة ومكتبة دار العروبة ، ١٩٦٢م) ، ص ص ١٥، ١٧ .

٤٠ـ المفضليات ، ص ص ١٩١،١٩٢،وانظر ايضا فى الخيال ، المفضليات ، ص ص ٢٧،٥٦،٩٢،٩٣،١١٣،١٩٢، وديوان لبيد، ص١١، وديوان

زهير ص ٢٠٩، وديوان عبيد ، ص ٦٢،وديوان الحطيئة ص ص ٤٧، ٦٧،٢٢٢، والجمهرة ، ص٥٤٦-٨٥٢ .

٤١- المفضليات ، ص ١٩٣، المهمه:القفر- نازح:بعيد-الآل:السراب ، الحرور:ريح حارة تكون بالنهار - الصقع : حرارة تصيب الرأس - الكنع : الذى لا يفارق - المرفت : المتحطم - القزع: بقايا تبقى من الشعر فى الرأس - الأعلام : الجبال- متع : ارتفعت شمسه .

٤٢- زهير بن ابى سلمى ، الديوان ، ص ٢٨٨ .

٤٣- لبيد بن ربيعة ، الديوان ، كل ما ورد فى الآبيات من أسماء هى أسماء جبال .

٤٤- انظر : جان برتليمى ، بحث فى علم الجمال ، ترجمة أنور عبد العزيز القاهرة : طبعة دار نهضة مصر،١٩٧٠م)، ص٢٨١ .